ميشائيل ڤاينس

أهل الأرض

رواية

بيانات النشر

الطبعة الأولى 2024

حقوق النشر © ميشائيل ڤاينس 2024

Minimal Trash Art (MTA), c/o futur-zwei GmbH
info@minimaltrashart.de

تصميم الغلاف: Jasmin Knickrehm
Satz Marc Frese

Gesetzt aus der Warnock

كل الحقوق محفوظة

الطباعة والتجليد: CPI Books GmbH

رقم الإيداع الدولي: 978-3-9814175-9-3

تدور هذه الرواية حول أمر متخيل. وأي تشابه مع أشخاص أحياء أو متوفيين هو من قبيل الصدفة البحتة

أُنجز هذا العمل بدعم من هيئة الثقافة والإعلام هامبورغ. والمؤلف يتوجه هنا بشكره لذلك الدعم.

" هكذا العالم أيضا؛ فهو ليس فقط حربا وطمعا وإبادة للأنواع؛ بل يتكون أيضا من سلاسل من البشر ينتبه كل واحد منهم للآخر."

بيتر هوغ "من خلال عينيك"

"ليس لديهم زعيم، ولا يعترفون بأي سلطات عليا، ليس لديهم لغة ولا قانون، كل ما ينقصهم الإيمان والسمعة."

الإسباني هولدينيس كازانوفا غواردا، مؤرخ وقائع ثورة أروكانا في منتصف القرن الثامن عشر

أرواح سفلية

(المستوى الأول)

صفحة 9

أهل الأرض

(المستوى الثاني)

صفحة 49

العالم ضيفا على أصدقاء

(المستوى الثالث)

صفحة 85

مصائد

(المستوى الرابع)

صفحة 113

الانتشار الغشائي

(المستوى الخامس)

صفحة 145

فلورا الحمراء

(المستوى السادس)

صفحة 181

عائلة صالحة

(المستوى السابع)

صفحة 229

تعقيب وشكر

صفحة 356

أرواح سفلية

تعرفت بوالدتي قبل أعياد الميلاد بثلاثة وعشرين يومًا. لقد سافرت من بلدها الذي اسمه ألمانيا إلى هذا البلد لتتعرف علي ولتأخذني معها. ألبسوني خصيصًا الفستان الأحمر الذي لا أرتديه فيما عدا ذلك إلا عندما يزورنا أحد الأفراد من الإدارة. قاموا بضم شعري الكثيف الفاحم على شكل ضفائر. أبدو لذيذة، أبدو كملاكٍ داكن. أقف بداخل مدخل الملجأ، وأرى المرأةَ الشقراء وهي تصعد المنحدر متجهة نحوي.

أحاول أن أقرأ ما يقوله وجهها عندما إنحت نحوي، عينان متعكرتان اصطبغتا بلون ماء رمادي غير رائق. المرأة خاوية وحزينة، يمكن رؤية هذا. لم تنم كثيرًا في الليالي الأخيرة؛ أستطيع أن أتيقين من ذلك من الهالات التي تحت عينيها. ترتدي بنطالًا طويلًا، رغم حرارة الجو، وحذاءً بوت أسود قصيرًا، وتي شيرت ذهبي اللون، وسترة من الجلد الصناعي نبيذية اللون. امرأة بيضاء، فينجكا، إنها كلمة أعرفها من اللهجة المابونزونغونية، أمرأة غريبة. يمكنها أن تشارك بالتمثيل في أحد المسلسلات التليفزيونية الأجنبية التي أشاهدها ليلًا مع الأطفال الأكبر سنًا، إنها محّققة تعول أسرتها وحدها وتعاني من مشكلة ما مع الأقراص الدوائية. تأتي بلا رجلها، هذا الشاب الأشقر الطويل، رغم أنني رأيت صورًا له في الملف. في الملف، رأيت صورًا للمنزل الذي سأعيش فيه. منزل كبير. رأيت صورًا للغرفة التي ستكون لي، غرفة كبيرة. نافذة كبيرة تشرف على الحديقة. الحديقة الواسعة التي تنمو فيها شجرة عملاقة. رأيتُ صورًا للحديقة. رأيتُ صورًا للجيرة التي سأعيش فيها ولروضة الأطفال التي سأذهب إليها، بكل أطفالها ذوي الشعر الفاتح والعيون الغائمة، بل حتى للمدرسة التي من المقرر أن أذهب إليها في يوم ما. في تلك الصور: غيومٌ كثيرة كبيرة، رمادية، داكنة. غيومٌ كجدارٍ يحجب رؤية ما يكمن وراءه. رأيتُ الصور في الملف وقلتُ: أريد الذهاب إلى هناك، أريد ذلك. أريدها.

أنا نفسي لا أعرف السبب تحديدًا، لماذا إذن؟. فأنا مَن اخترتها، ولم تكن هي من اختارتني، لقد كنت أنا.

تجلس المرأة أمامي القرفصاء. تلمس شعري اللامع. تنظر إليّ وماء يتجمع في عينيها.

تقول: مرحبًا، اسمي الكامل هو لينا هانسن. أنا الماما الجديدة لك. سمعت عنكِ كثيرا. سعيدة خالص بالتعرف عليك أخيرا. أتمنى نفهم بعضنا جيدا.

علي الحذر من الوقوع في الضحك.

في الواقع ما تريد قوله هو الآتي: كم أود أن أكون أمك الجديدة، أن يُسمح لي، أن أصبح، إذا ما سمحتِ أنت لي بهذا. إذا كانت بي طاقة فسأكون عازمة على محاولة فعل ذلك. إنني في حيرة من أمري. لكن قيل لها أن تختار صيغة التعبير الاعتيادية المعبرة عن الحقيقة الفعلية، قيل لها أن هذا أفضل للطفل. قيل لها إن الأطفال بحاجة إلى هذا هنا: الوضوح، اليقين.

طلب مني المعلمون تلاوة جملة تحية تم التدرب عليها من قبل وتكون جذابة، ولكن ليس عندي أدنى رغبة لفعل ذلك.

أقول: أعرف، فلقد رأيت صورتكِ في الملف. اسمي فلورا لوبينا، عمري خمس سنوات إلى آخر هذه البيانات. لكنكِ أي نعم تعلمين ذلك. أين رجُلك؟

تبتلع المرأة ريقها، وتحول نظرها ناحية المربيات، لتقول: للأسف مرض، فلم يستطع المجيء معي.

إلى الملجأ أم إلى تشيلي؟

آه، اضطر للبقاء في ألمانيا لأن المرض اشتد عليه جدا.

أتيتِ وحدكِ؟

تظهر بقعة حمراء على وجه المرأة، وتومئ برأسها.

أنتِ تفعلين حاجات غريبة.

تنظر إليّ باضطراب. أقول: أنا متشوقة لأرى ما إذا كنتِ ستحصلين عليّ أصلا بعد كل هذا؛ فالسلطات هنا عنيدة إلى حد ما. سيكون عليكِ حتما أن تبذلي قصارى جهدك.

تبحث بنظراتها عن الإخصائية النفسية التي تبتسم كعادتها ابتسامة عوجاء. تحدق مرة أخرى في عيني. تشعر بفزعة لأنها رأت الضوء الأسود.

حسنًا، أقول لها، وأمسك يدها. اقترح أن نحاول أن نخرج بأفضل نتيجة ممكنة. تفضلي أولا بالدخول، وسأريكِ كيف أعيش هنا في ملجأنا الجميل المخصص للأطفال عديمي الفائدة. يمكنك أن تشربي قهوة، وهم دائماً ما يُحضّرون لنا شايا ما للأطفال. والذي هنا على سبيل المثال هو مانويليتو، الذي نُناديه جميعاً شارلي؛ بصراحة ليس لدي أي فكرة لماذا.

أشير إلى طفل في الثالثة من عمره، مصاب بدرجة بسيطة من الإعاقة العقلية المسماة بالبله، يقف حاملاً بين ذراعيه خنزيره الغيني الصغير الذي يسيل اللعاب من فمه، يحدق في الآخرين بعيونٍ واسعة. جميع من هنا يتمنى أن يكون له أم شقراء مثلها. على حد علمي، والدته البيولوجية مدمنة كحوليات، ولكن من أمه ليست كذلك؟ على الأقل لا تزال على قيد الحياة، وهو يعرف، أو على الأقل يُمكن أن يعرف، من أين أتى. وهذا في حد ذاته شيءٌ لا بأس به. أفضل من حالتي؛ فكل ما أعرفه عن أصولي هو الآتي: أنا مابوتشية. أحد السكان الأصليين. هكذا تصفنا المربيات عندما يتحدثون مع السلطات. يقول الآخرون عنا "هنديو"، لكنها وصف منحط. يوجد هنا بعض منا، وفي القرية والمدينة، ترى البالغين بملابس العدو الرياضية وقبعات البيسبول، وفي التليفزيون أيضا، يحاصرون أي مبنى حكومي بقرع الطبول وقد ارتدوا عباءة البنشو المنسدلة من الكتف إلى تحت الركبة. لكن المربيات وجميع من في الملجأ، بلا استثناء، تشيليون بيض.

فلورا هو اسم تشيلي. لكنني لست تشيلية، يشعرونني بهذا مرارا وتكرارا. عندما لم يُناسبهم شيء ما، أو عندما أفعل شيئا مخالفا، فإنهم يقولون: "مابوتشية!" كما لو كانوا سيبصقون بشيء ما. فلورا، هذا مجرد الاسم الذي اختاروه لي لهذا الأمر. لكنني فلورا لوبينا. وقد ابتكرت اسم لوبينا لنفسي بنفسي؛ إنه ينبع مني أنا؛ وحدي أعرف ماذا يعني. ابتكرته لنفسي وطلبت من رجل الآلة الكاتبة أن يكتبه في الأوراق. لم يستطع أن يحيل بيني وبين روحي. هناك العديد من اسمهم "فلورا"، لكن هناك "لوبينا" واحدة فقط، وهي أنا.

أجرجر المرأة الشقراء خلفي، تاركةً الاخصائية النفسية والمربية والمديرة والمرأة من الإدارة واقفين هناك بأذرع مطأطأة.

أقول، انظروا، هذه قاعة الطعام، وهناك مكاني.

أشير إلى الطاولة التي أجلس عليها بين طفلين يربطني بهما في المقام الأول أن لا أحد حتى الآن كان يرغب فينا. وحيث يقدمون لي طعامًا لا يرغب من طبخه أن يتناول منه بإرادته الحرة. أقول: يوجد في المقام الأول عصيدة من الذرة، لهذا أبدو سمينة جدًا، هل تعرف هذا. هكذا يفكرون: السمنة تساوي الصحة.

تحدق بي وينتابها القلق. لا ترتاح إلى أنني أتحدث بالطريقة التي أتحدث بها لأنها لا تتوقع ذلك من طفلة في الخامسة من عمرها. يحدث هذا مع معظم الناس. ولا يُساعدني في شيء أن كل شيء على ما يُرام فيما يخص مشاعري، أن أشعر بمنتهى الدقة كما تشعر الفتيات في سن الخامسة. مشاعر ضخمة، متخبطة، بلا أي تفاصيل مميزة. أنا حانقة! أنا حزينة! هكذا. شعور يطارد الآخر ولا أستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. إنه أمر مُرهق بعض الشيء أحيانًا، لي وللآخرين على آية حال.

قُدتُ أمي الجديدة عبر كل جنبات الملجأ، أُريتها كل شيء، إجراء لبناء الثقة، ووراءنا كتيبة الموظفين في الملجأ. جرجرتهم خلفي ولم أترك لهم أي مجال للشك في أنها تخصني.

دخلوا إلى مكتب وتركوا الباب مواربا. أحمل بين ذراعيّ الدمية التي أحضرتها معها من بلدها. دمية بضفائر شقراء وعيون غبية مستديرة استدارة عيون الأبقار. غالبا سأقع في حب هذه الدمية؛ فلا حيلة أمام ذلك لطفلة في الخامسة من عمرها. أسمعهم يتحدثون الإنجليزية مع بعضهم البعض. سمحوا لي بالإصغاء لهم لأنهم يعتقدون أنني لن استطيع أن أفهم شيئًا. يستهينون بي، حتى الآن.

قال الإخصائية النفسية: إنها طفل خاص، كما تعلم.

لقد درست المرأة في الجامعة لتتمكن من اتخاذ مثل هذه المقولات التقريرية.

وقالت أمي الجديدة: خاص بأي معنى؟ لماذا تقولين ذلك الآن؟ لماذا لم يُذكر أي شيء من هذا في التقرير؟

حسنًا، أنها ذكية فهذا تعلمينه قطعا.

أقاموا علي ذات مرة اختبار ذكاء. أصابهم الخوف لأنني وأنا لا أزال في الثانية من عمري كنت أتحدث إلى حد ما بنفس الطريقة التي أتحدث بها الآن. بل أنني حاولت وقتها إخفاء ذلك. أجرى الاختبار رجل عجوز في غرفة متربة في مدينة تيموكو. لم يكن يتوقع الكثير، كان يمكن قراءة ذلك من عينيه المتعبتين. يحضرون جميع أطفالهم إليه ويتمنون أن يقول: أوه، طفلك خاص على نحو خاص، أما هذا فهو خاص وموهوب على نحو أكبر من جميع البلهاء الآخرين. في البداية فكرت أن ألعب به الكرة لأنه كان في منتهى السذاجة، هذا الاختبار. لكنني مع ذلك أجريته. أعاد الرجل العجوز حساب نتائجه مرتين. بعد يوم طلب مني إجراء الاختبار الخاص بالأطفال الأكبر سنًا. وبعدها بقليل طلب مني ملء النسخة الخاصة بالبالغين.

لم يتعلق الأمر حينئذ بأنني ذكي. بل تعلق بالضوء، بالضوء الأسود الذي تظهر فيه لي أشياء معينة. والأشياء تتحدث معي.

في لحظة ما ينفتح الباب كاملا ويحدق جميعهم فيّ ويبتسمون؛ يبدو الأمر كما لو كان أنه قد نُحت هذا لتوه في وجوههم.

في تلك الليلة، لم أستطع أن أغفو، لكنه أمر معروف لي. في تلك الليلة، كنت قلقًا على نحو خاص. مرارا وتكرارا تحتم عليّ أن أفكر في المرأة الشقراء. أضغط دميتها إلي، أضغط نفسي إليها، أضغط وجهي فيها. لن أُطلق على الدمية أي اسم، ومع ذلك أراها تتبلل بأدمعي. لا علاقة بالأمر أنني سأفتقد الملجأ. المعلمات، والإخصائية النفسية، ومديرة الدار والمشرف على مبنى الملجأ الذي يأتي أحيانًا ليلا عند سريري- ليس سريري فحسب- وهو الذي يعملني نهارا النحت. ثكناتنا القديمة المصنوعة من الخشب، عنبر النوم، قاعة الطعام، غرفة الأنشطة، المكاتب، الخرائط على الجدران وصور الأطفال الذين أصبحوا بالغين من زمن طويل. الفناء الأمامي المترب وملعب الأطفال الصغير بمعداته الوضيعة، والطريق المؤدي إلى جدول الماء والطريق الآخر الصاعد ناحية التل حيث تنمو شجرة أروكاريا الهائلة، الأروكاريا الخاصة بي، والتي أحاول دائما وأبدا تسلقها لكي أتسامى بنظري عن كل شيء، إلى أبعد نقطة في الفضاء البعيد، إلا أن إبر تلك الشجرة صلبة للغاية ومدببة للغاية، وذات وخز هائل.

أستلقي هناك وينتابني الخوف. والحزن. لا أعرف ما هو قادم علي. هل ستحبني؟ هل ستكون قادرة على حمايتي بشكل كاف؟ لا أعرف من ماذا؟ هل سأحميها أنا بما يكفي؟

أصغي إلى تنفس الأطفال وشخيرهم، وصرير الأسرّة بين الحين والآخر. يحاصرني التنفس والشخير والصرير، وأتساءل إن كنت سأفتقده يومًا. أغمض عينيّ لعلّ حلمًا يستطيع أن يصطحبني، ليُريني شيئًا لا أعرفه بعد. ليشرح لي الحلم شيئًا ما. أحلم أحلامًا كهذه. آمل أن يأتي الليلة حلمٌ، يصطحبني من أبعد نقطة في قمة شجرة الأروكاريا فوق التل الواقع خلف الملجأ التي تسلقتها بيدين وقدمين تساقط منها الدماء. سينزل الحلم من سماء الليل المرصعة بالنجوم. سيتهادى الحلم إلى من الجبال العملاقة العتيقة، ويمد يده برفق ليلتقطني، ويرفعني بحذر بمخالبه. حينئذ لن أسمع سوى حفيف أجنحته التي بها سيحملني عبر الطبيعة المظلمة ليُريني شيئًا محددًا تماما.

ليس ببعيد عن منزلنا ينمو بركان. إنه ضخم، و يقارب ارتفاعه 3000 متر. إنه أجمل ما أعرف. إنه أبيض كالثلج، واتخذ شكل المخروط، ويتصاعد منه عامود من الدخان. يتصاعد عمود الدخان هناك منذ بضعة أسابيع. يقولون إن البركان نشط، وبعضنا خائف، وبعض الأطفال في الملجأ ينتابهم الخوف من أن يقذف علينا البركان رمادًا وصخورًا، لكنني لست كذلك. أنا في منتهى السعادة أنه موجود ويتحدث معي. يقول لي: "مرحبًا يا فتاه"، أنا هنا من فترة طويييييلة جدااااا. أقول له: "أعرف هذا، فنفس الحال معي". في روضة الأطفال قالوا لنا ما ينبغي علينا فعله إذا ثار البركان، وأين نركض، وأين نتجمع انتظارا للحافلات، وهناك لافتات في زوايا الشوارع تُظهر ناس يهربون من كتل الحمم البركانية باتجاه السهام. أشاهد البركان من النافذة الخلفية للسيارة. وإذا ما ثار البركان فكل ما سأفعله أنني سأقف ساكنًا، وسأغمض عيني، وأنفخ خدي. سأضمّ يدي معًا، وأتحرك كالضفدعة وأغوص بصمت داخل أحشاء النار الحمراء.

أجلس في المقعد الخلفي؛ فقد اصطحبتني ليتعرف بعضنا على البعض الآخر بشكل أفضل ولنستطيع أن نعقد صداقة ما بيننا. في المرة الثانية يُسمح لهم دائمًا باصطحاب الأطفال لبضع ساعات. في المرة الثالثة تكون الحقائب قد حزمت وينتقل الأطفال إلى الفندق. ثم يجري انتظار موعد المحكمة. تتأرجح السيارة ذهابًا وإيابًا على الحصى، وليس من السهل مراقبة البركان بهدوء وأنا أسند ذقني على راحة يدي. أرى البركان، وأرى بيوت الملجأ الخشبية تتضاءل من خلفي.

الطريق ينحدر نحو مسار هابط رمادي اللون، أما على اليسار واليمين فمروج ملونة.

لا أركب السيارة عادة. أحيانًا يحشروننا في الحافلة عندما نقوم برحلات قصيرة حيث يصيبنا جميعًا الغثيان. رحلات قصيرة، إنها رائحة قيء الأطفال في الحافلة. وأحيانًا نركب سيارة مديرة الملجأ عندما نضطر للذهاب للسلطات في المدينة الكبيرة.

ماذا تريد أن تفعلي أولًا؟ تسألني أمي الجديدة. بدا عليها الإجهاد، إجهاد أكبر مما يبدو عليه سائق الحافلة عادةً عندما يناور هنا حول المنعطفات.

ودون انتظار إجابتي، قالت لي: أولًا، يجب أن نلقي نظرة على الشقة، أليس كذلك؟ يوجد هناك حمام سباحة، وبعدها يمكننا الذهاب لتناول الآيس كريم.

أسألها: لماذا تعرفين الإسبانية؟

بالطبع، أعرف أنهم يتحدثون في بلدها لغة مختلفة. على رف الكتب في دار الأطفال يوجد كتاب مليء بكلمة "غريم"، وهي كلمة ألمانية مكتوبة على الغلاف وهو الكتاب الوحيد من بلدها.

نظرت إليّ في المرآة الخلفية.

تعلمتها لمدة عام كامل، خصيصًا من أجلك. أخذت درسا عند إحدى السيدات.

لا أجيب، بل أنظر من النافذة. مررنا بمنطقة جزت أشجارها، والأرض جرح فاغر فمه.

أخدود يليه أخدود ، أمواج حمراء تدحرج من باطن الأرض. تسألني: هل تريدين أن تعرفي شيئا آخر عني؟

لم أقل شيئًا، لكنني فكرت بيني وبين نفسي: وما فائدة ذلك؟

أعرف على أية حال بعض الأشياء عنك، هكذا قالت لي. على سبيل المثال، ما الذي تحبين أن تلعبينه وما هو طعامك المفضل في الملجأ.

نظرت إليّ في مرآة السيارة الخلفية لبرهة.

أعلم أنك عشت مع عائلة أخرى من قبل، وأن والديك البيولوجيين كانا من المابوتشي، وأنهما جرى مؤخرًا البحث مجددا عنهما.

أنظر إلى عامود الغبار برتقالي اللون الذي نخلّفه من ورائنا. أنا، بدوري، أعلم أن الغبار وإزالة الغابات لهما علاقة بشركة فورستال التي تريد زراعة أشجار أفضل هنا وبالتالي تشتري من الناس أراضيها بحيث يصبح جميعهم أغنياء. رأيت ذلك في التليفزيون. التليفزيون وكتب الأطفال هما مصدر معلوماتي. كل ما أعرفه عن والدتي الحقيقية أنها كانت تشرب الكحوليات، وكانت تبيع فرجها، وذهبت إلى سانتياغو لتعيش في كوخ من الورق المقوى، أو على الأقل هذا ما حُكي عنها.

أحيانًا أتخيل أن كل شيء في الواقع كان مختلفًا تمامًا. فأمي جميلة وقوية وساحرة، واضطرت للتخلي عني رغمًا عنها، وهي تنتظرني في مكان ما في المستقبل.

سنذهب لأكل الآيس كريم، حسنًا؟ هذا ما تقوله أمي الجديدة. لكن قبلها سنمر على الشقة لتري الملابس التي اشتريتها لكِ. أم أنتِ من النوع الذي يصر على ارتداء الفستان الأحمر كل يوم؟

ننظر إلى بعضنا البعض في مرآة السيارة الخلفية، وليس أمامي إلا أن أبتسم رغما عني.

تتكون المدينة من منازل خشبية، وشوارع واسعة، ونخلة في كل زاوية. وفي وسطها المتاجر التي فيها تجري محاولة إقناع السياح بالقيام برحلة إلى المياه الجبلية أو تسلق البركان. هناك مطاعم بشرفات يجلس فيها البيض مرتدين النظارات الشمسية وأحذية سميكة لتسلق الجبال. وفي الشوارع عائلات من السكان المحليين مع أطفالهم، والنساء يرتدين التنورات ويبتسمن لي، والرجال يرتدون قبعاتهم. سابقا كان المابوتشي يرتدون عصابة للرأس، بعضها مزين بريشة، أعرف ذلك من أحد الكتب الموجودة في الملجأ.

وشجيرات صفراء في كل مكان.

في الشقة فرشت قطعًا من الملابس على السرير. ملابس ارتحلت إلى هنا آلاف الكيلومترات عبر البحر. أبص إلى كل شيء بتأمل لبرهة: ملابس من ألمانيا. ملابس جديدة فواحة، ملمس القماش بين أصابعي مريح. ملابس لا تزال بطاقة السعر معلقة بها. في الواقع كنت قد قررت أن أجعل الأمور صعبة بقدر الإمكان على هذه المرأة. لكنني بعدها اخترت بنطالًا أخضر بجيوب كبيرة كثيرة عند الساقين، وتي شيرت بنفسجي طويل مكتوبًا عليه شيء ما بخط متصل: كلمة إنجليزية، "ملاك"، لكن الكلمة بالإسبانية تكتب هكذا أيضًا. فتحت باب دولاب الملابس، وأخذت اتأمل نفسي في المرآة: 94 سم، إنه هو طول صغير للغاية بالنسبة لعمري. أعرف هذا لأنهم باستمرار يأخذون مقاسنا في الملجأ ويزنوننا. لكن الأشياء كانت مناسبة تمامًا.

في الشارع، يمعن الناس في النظر إلينا. يتابعونا بنظراتهم. امرأة أجنبية طويلة شقراء، وفتاة من السكان الأصليين تزداد ضآلة. ينظر البيض بتساؤل في أعينهم، أما المابوتشي فينظرون بصرامة ويرفعون أنوفهم تأففا. تمسك المرأة يدي بحذر، فتركتها لها. نسير يدا بيد عبر الشوارع وفي كل مكان، وفي كل مساحة عشبية نمر بها تنطلق أصوات رشاشات العشب احتفالا.

في الملجأ حفل وداع لي. عُلّقت في صالة الطعام البالونات والزينات، وأعدّ الطاهي طعامًا شهيًا على سبيل الاستثناء. هناك إمباناداس، وباستيل دي شوكلو، وهناك كازويلا، وهو يخني بالدجاج واللحم البقري والقرع العسلي والأرز. وهناك أيضًا سوسيس وهامبرغر مع بطاطس محمرة. كل شيء موجود على الطاولات في مقدمة صالة الطعام. كل طفل يحشو بداخله أكبر قدر ممكن من الأصناف الطيبة. في الليل ستمتلئ صالة الطعام برائحة الفساء الخارج من البطون وأنين الأطفال ببطونهم المنتفخة التي على وشك الانفجار. نبتلع الحلويات اللذيذة بعدها بنهم، ثم تعطيني مديرة الملجأ شيئًا مغلفًا ليذكرني بالملجأ. بعد ذلك، نلعب بعض الألعاب. أولًا في الداخل، ثم في الخارج في مكان اللعب. أستبقي نفسي قريبًا من الأطفال الذين أحبهم. أحب أنطونيو ذا السنوات الست بعينيه الجميلتين الواسعتين الذي يستطيع اصطياد جميع أنواع الحيوانات بيديه. أحب روزا ذات السنوات الثمانية التي تروي قصصًا جيدة حقا، قصصًا سمعتها أو ابتدعتها. بقصصها تنجح مساءً بعد إطفاء الأنوار في أن تُبقي عنبر النوم كله ساكنا لعشر دقائق. أستظرف فرناندو الأفلج، فهو جرئ، وعلى سجيته، وقوي، ويريد أن يكون شيئًا آخر غير طفلٍ ملجأ ينتظر شيئًا ما من الأشياء.

نركض بأقدام حافية إلى الجدول لنصعد بعدها التل. نزحف معًا مجددًا إلى أوكارنا في الأدغال ونتسلق أفضل الأشجار التي يمكن تسلقها والتي من عندها نستطيع أن نكوّن صورة كلية عن الطريق الهابط المؤدي إلى الملجأ. نجلس معًا أمام المنزل، تغرب الشمس، نمدّ أقدامنا السوداء الفاحمة ونحرّك أصابع أقدامنا، نطلق لضحكاتنا العنان ثم نصمت.

أتجه نحو يولاندا على الناحية الأخرى، يولاندا ذات النظارة والشعر الأسود المزرق التي تجلس على المقعد وتتأملنا بعينين لامعتين. أعرف يولاندا منذ أن استطعت أن أفكر وهو أمر استطيع

القيام به من أمد بعيد. يولاندا هي الأقرب لما يمكن أن تُسمّيه أمًا. إنها تُحبني، أعرف ذلك، مهما كان الأمر صعب الفهم. وهذا على الرغم من أنني صعّبتُ الأمر عليها، فأنا أصعّبه على الجميع، دائمًا. أن أتركها، هذا ما لا أريده. سوف أفتقدها. أجلس بجانبها. تضع يدها على ظهري. أضع رأسي في حجرها. تربت على شعري الذي مشطته مرات لا تُحصى. تشمخ بأنفها. أعتدل في جلستي وينظر كلانا في وجه الآخر. أفكر في المرات العديدة التي صرخ فيها الواحد في وجه الآخر. ثم تأخذني في ذراعها وتدفعني إليها.

ولم يعد بي رغبة في أن أكون في أي مكان آخر في العالم، في أي مكان.

دائما وأبدا ما تمسك لينا بالصورة وتبحث فيها. مرارًا وتكرارًا تتساءل عن السر وراء تلك النظرة. تشعر بضآلة غريبة عندما تنظر إلى قرار أي عيون سوداء؛ تشعر بالاستفزاز، وفي الوقت نفسه تشعر، وعلى نحو يدعو للدهشة، بالسكينة. تعرف أن القتال سوف يكتب عليها، وأن لديها ما تدافع عنه. مهمة ما. تشعر بأن هذا الطفل يرافقها؛ هكذا كان الحال لأسابيع، لأشهر، منذ أن تلقت هذه الصورة الوحيدة، عندما غادرت في وطنها المنزل وقذفت بنفسها بداخل السيارة. عندما كانت في المدينة وصعدت السلم إلى الطابق الخامس في مبنى الفرع القديم حيث تقع دار النشر، كل صباح صعودا على الأقدام – فلن تطأ قدمها أبدا هذا المصعد الذي يعود إلى الخمسينيات. عندما كانت تتخذ مكانها إلى مكتبها. نظرت إلى صفحات النسخة المكتوبة بخط اليد، لتمعن النظر إلى الواجهات من الطوب الأحمر للمخازن القديمة على الجانب الآخر من القناة التي تمر بها البواخر، لتفكر في الطفلة، في هذا الكائن القابع خلف تلك العيون، كيف سيكون يا ترى حالها، كيف سترى الأشياء بتلك العيون السوداء اللامعة وكأنها مصنوعة من حجر الأوبسيديان الناري، هذه العيون التي يبدو أنها كانت تعرفها من قبل دائمًا.

وربما تسرف أيضا في البحث كثيرا عن أسرار في هذه الصورة.

تجلس على السرير في الشقة، بينما استقرت قدماها العاريتان على الأرضية المصنوعة من الأحجار اللوحية. تفكر في الطفل. لقد رأته لتوها للمرة الثانية. تشعر بغصة في القلب. الطفل يلمسها. غدًا ستصطحب فلورا لوبينا، إلى الأبد. فكرة مزعجة. هي بالذات. لقد نامت نومًا بائسًا. أولًا الاستغراق في الفكر، ثم البطانيات. لا تستطيع التعايش مع هذه البطانيات. لا تفهم ما الذي يفترض أن يكون جيدا فيها. أولًا بالكاد تستطيع التنفس تحت تلك الأشياء المشدودة بإحكام، ثم تنزلق في أثناء الليل، بطانية صوفية وملاءات، وفي النهاية تستيقظ لتجد نفسك تحت البطانية التلبيسة غير المغسولة التي كان مندوب المبيعات المتسخ قد حك جسده بها.

تجلس هناك، لا تكاد تغادر الغرفة، فقط من أجل المواعيد المتفق عليها، كما لو كان غير مسموح لها أن تترك الطفل وهي التي كانت قد خططت للقيام بأشياء كثيرة. كانت تريد أن تجوب صحراء أتاكاما في الشمال، حتى لو كانت موجودة هناك من قبل. إنها أكثر صحاري العالم جفافاً. أرادت وحدها، وقد تسلحت بخيمة، حقيبة نوم، وماء، وجهاز إرسال الإحداثيات، أن تمشي على خط مستقيم عبر الغبار، مُحاطةً بالصمت، والريح، لا شيء حولها سوى الفراغ، وعلى البعد سلاسل الجبال. صححت ذات مرة مخطوطة امرأة كانت قد قامت بتلك الرحلة قبلها – رغم كل التحذيرات. وفي رحلتها، كما كان مُتوقعا، لم تصادف سوى نفسها. حلمت بالعثور على كهف صغير في الصخور تستطيع فيه أن تحشر نفسها حشرا، تستطيع أن تتقرب منه بجسدها، وأن تستلقي فيه، والليل والنجوم الراقصة أمامها، حتى يُوقظها شيءٌ ما ويُحرّكها لمواصلة المسير، دافعٌ ما.

والآن هذا الانتظار، هذا الجمود. لا صحراء، ولا مضايق باتاغونيا.

تنهض وتأخذ حقيبتها لتتسوق. تحتاج إلى بيرة أخرى لتصفية ذهنها. تخرج من مجمع الفنادق إلى الطريق الرئيسي المُترب، حيث تسير شاحنات البيك أب كعادتها بصوت هادر؛ أما السكان المحليون بوجوههم العريضة تحت قبعات البيسبول الذين يقفون عند محطة الحافلات، فينظرون إليها بلا مبالاة.

عند الصراف الآلي التابع لأحد للبنوك تسحب نقودًا، كثيرا من الأوراق بكثير من الأصفار؛ أحيانًا تفقد الرؤية الكلية. تدسها في محفظة صدرها، هذه الزلة العصرية التي نصحتها جهات مختلفة باتباعها. تدخل السوبر ماركت، قاعة ضخمة ذات صفوف تليها صفوف من الرفوف. تدفع عربة التسوق عبر الممرات المختلفة، تملأها تلقائيا بالماء والمخبوزات. تميل برأسها إلى الخلف وتجعل من أضواء النيون دليل طريقها. تحلم بالبيرة، تحلم بأحلام البيرة، تحلم برغوة بيرة كثيفة يمكن أن يوضع فيها قطعة من فئة المئة بيزو. هناك أنواع لا تُحصى، أكثر بكثير مما في بلدها، إنها عولمة البيرة الكاملة. بالطبع هناك ماركة هاينكن وبودفايزر، ولكن هناك أيضًا أنواع بأسماء ألمانية لم تسمع بها من قبل مطلقا. وما عدا في ذلك الحلم فإنها لا تشرب البيرة عادةً؛ لكن زوجها يفعل ذلك، وهي على أرض الوطن تشتريها له. لا تعرف هي نفسها على وجه التحديد ما هذا الشيء الذي يجعلها ترغب في شرب البيرة طوال الوقت هنا؛ تريد أن تصبها بداخلها، وتملأ نفسها بها، البيرة تدخل من الأعلى، أكثر فأكثر، وبالأسفل تتجمع البيرة حتى يصل مستوى الامتلاء إلى أعلى درجة ممكنة له.

تقف هناك، في منتصف الممر، للحظة وجيزة ضلت طريقها.

ثم تخبطها سيدة، وللحظة تستحضر صورة سفينة منتفخة تقذفها موجة عاتية إلى جدار الميناء. اختفت السيدة، يحدث كل شيء بسرعة كبيرة. ترى ظهرها، منديلا على الرأس عند الخزينة، السيدة تغادر السوبرماركت.

المال، نطقت بالجملة في سرها.

تتحسس محفظة الصدر التي اختفت. حدث كل شيء بسرعة كبيرة. وقفت هناك للحظة محدقة في الفراغ؛ اضطرت للابتسام، لتترك عربة التسوق في مكانها.

عليكِ الاتصال بالشرطة، قالت هذا امرأة سمعت ما حدث لعاملة الخزينة التي كانت منهمكة في حشر بطيخة ضخمة في حقيبة صغيرة للغاية.

مهلاً، هكذا هتفت عاملة الخزينة. عليكِ الانتظار، سأتصل بالشرطة.

تجاوزت شبابيك الدفع. في موقف انتظار السيارات يتكشف لها ضوء الحقيقة لترى منديل رأس يتمايل على بُعد أمتار قليلة. تركض نحوه، تزيد من سرعتها، لتمسك بالمرأة وقد توحشت أنفاسها. أدارتها نحوها ونشبت يدها في بلوزتها.

أموالي، هذا ما قالته.

تمسك المرأة من بلوزتها فيروزية اللون لتنفث أنفاسا وحشية في وجهها.

أريد نقودي.

للسيدة وجه بني اللون. وللسيدة شعر أسود. وهي ترتدي تنورة طويلة، تبرز من تحتها المقدمة المدببة لحذاء رجالي.

"نقودي"، قالتها وهي تجز على شفتيها.

تنظر إليها المرأة بلا اكتراث.

تنظر إلى الأرض. هناك يقبع المال، كومة من الأوراق النقدية.

"لا بد أنكِ أضعتِه،" قالت هذا المرأة وهي تشير إلى الأوراق النقدية التي تلعب بها الريح.

تخلصّ المرأة نفسها من بين يديها وتهرب من المكان. تنحني لينا لأخذ النقود. تجمعها. تنظر حولها باحثةً، كما لو كانت قد استيقظت من النوم لترى نفسها بأعين أحد ينظر إليها من الخارج. لهذا السبب كان عليها أن تضحك وتسمح للريح أن تتوغل إلى رأسها.

"أحسنتِ،" قالت هذا لنفسها. المارة الذين كانوا يراقبون الموقف من بعيد تجرأوا على الاقتراب من المشهد.

"هل أتصل بالشرطة؟" سألها رجل يرتدي بدلة بنية.

قالت له: "لا، فالنقود هنا، شكرًا لك."

"لقد اختفت محفظة الصدر، لكن يبدو أن النقود كاملة."

"أنتِ ترتكبين خطأً،" قال لها الرجل. ستعود، لن تدع الأمر على حاله، في المرة القادمة سيتضرر شخص آخر قد لا يركض بسرعة مثلك.

ابتسمت، لكنها لم تقل شيئًا.

تعود بعدها إلى السوبر ماركت. فعليها شراء البيرة. على الإنسان أن يحدد الأولويات.

تفكر كيف أنها ستجلس لاحقًا على السرير في الشقة وتتأمل في المطبوع على الحائط، خيالات رومانسية من فترة السبعينيات لامرأة واقفة أمام النافذة، متدثرة بالكامل بقماش التول، وفي الخلفية عصفوران. قدماها العاريتان على الأرضية الحجرية الباردة، وعنق زجاجة البيرة في فمها، شعور شهواني. تنهمر البيرة بداخلها مثل دواء مذيل البلغم "أمبروسيا". تفكر في الطفل وتخجل من نفسها.

***

في الليلة الأولى مع والدتي الجديدة استلقي على السرير. اصطحبتني، وحملت حقيبتي إلى السيارة، وربطتني بحزام الأمان في المقعد الخلفي. لم أنظر للخلف ناحية الملجأ. أخذتني إلى الشقة التي كنت أعرفها من قبل. جلسنا على السرير وأكلنا الفاكهة. شغّلت التليفزيون. تأملنا فأرًا مكسيكيًا يستطيع الركض بسرعة.

ثم وضعتني تحت الدش وألبستني ثوب نوم جديدا خرج لتوه من غلافه. في البداية، جلست بجانب سريري طويلًا، ممسكةً بيدي حتى أدرت ظهري عنها وتوقفت عن التنفس. الآن تجلس على الكرسي الوثير الذي عند النافذة، وقد اتكأت بوجهها على راحة يدها. تجلس في ضوء مصباح أمام السرير مستطيل الشكل حالك السواد، وتراقب الحشائش أمام الشقة كما لو كان شيء ما

يحدث هناك. وتتنهد بين الحين والآخر. وفي لحظة ما تغفو على الكرسي الوثير وتشخّر، أما الدمية فقد أصبحت طرية تمامًا بين ذراعي. أظن أنني لن أستطيع النوم مجددًا.

في لحظة ما أغادر السرير؛ يأتي الأمر مفاجئا.

إذ لا أظن أنني أنهض. إنه يرفعني، بل أنني أستطيع مشاهدة ذلك. أتأرجح، لكني في الوقت نفسه يظل جسمي مفرودا. تنزلق البطانية عن جسدي لأني أصعد لأعلى وأعلى. يُخيفني هذا، لكن مع هذا لا يبدو الأمر عليّ غير مألوف.

بانتظام أصعد خارجا عن السرير. أترك الدمية وأشاهدها وهي تسقط إلى الأسفل ناحية السرير. عيناها المستديرتان تحدقان فيّ. استطيع أن أرى شعري الأسود وهو يتدلى إلى الأسفل. أنظر إلى الغرفة بأكملها، أرى من مكاني المرتفع المرأة الألمانية جالسة على كرسيها، أرى سريري، حيث أستلقي بين ملاءات تكرمشت، وسريرها، والبطانية مقلوبة من عليه. ثم أستدير ناحية القادم عليّ. أنزلق عبر السقف المغطى بالورق المقوى كسكين يمر في الزبد ويقطعها. أنا معلقة فوق السقف في الهواء كدمية، والريح تبعثر شعري وتقبض على قميص نومي. أظن أنني في الحقيقة على الأرجح مستلقية على السرير والدمية بين ذراعي. لكن من على البعد أستطيع أن أرى طوق البركان وهو يتوهج. أصعد عاليا ناحية السماء؛ يومًا ما سأصطدم بها فوق. وأظن أن أحدهم ينتظرني هناك، أظن أني سألتقي بشخص ما، شخص مهم.

فلورا لوبينا، سينادي أحدهم بصوتٍ يخترق حجاب كل شيء، صوت تشعر به في داخلك، ارتعاشة، رجة. سيقول أحدهم: مابوتشي، فلورا، يا أهل الأرض. ثم يعطيني أحدهم تكليفا انتظرته طويلًا، كما سيتثبت لدي في تلك اللحظة. وسأتمكن من العودة إلى الأرض وإلى سريري، وأخيرًا سأتمكن من أن أغفو.

لكنني فجأة أجلس تحت وهج مصباح هالوجين على حافة حمام السباحة، وقدمايّ العاريتان في الماء.

الضوء على هذه الدرجة من السطوع حتى أن الليل ليبدو وكأنه منديل أسود مقطوع. أسمع صوت صرصور الليل، ولا أرى نجومًا، ليس هناك إلا البركان وهو يتوهج برفق من بعيد.

أنظر إلى السقف، إلى القرميد الخشبي الرمادي اللامع للمبنى الذي يضم قاعة الاستقبال.

تجثو صاحبة الشقة بجانبي على ركبتيها، واضعة إحدى يديها على كتفي والأخرى على خدي، ناظرة إلى وجهي.

"كل شيء بخير"، أقول لها. يُمكنكِ إعادتي إلى سريري.

أعادتني السيدة لتطرق على الباب بعنف موجهة حديثها بحنق إلى أمي المذهولة ذات الشعر المبعثر.

تقول: فقط تخيلي لو وجدتها طافيةً في حمام السباحة ووجهها لأسفل.

يا إلهي، هذا ما قالته أمي الجديدة، لتأخذني في حضنها.

عندما غادرت صاحبة الشقة، وضعتني في السرير. دفعت بكرسي أمام الباب. الأرض بأكملها محاطة بسياج معدني مرتفع، وهناك بوابة كبيرة ذات قضبان، لكن الأبواب لا يمكن أن تغلقها من

الداخل. أتخيل أثر أقدام الأطفال المبللة هنا وهناك التي تقود من حمام السباحة إلى غرفتنا عبر الألواح الحجرية، والتي – لا أعرف من – ستوضح له الطريق.